ونكتشف، شيئاً فشيئاً، بدءاً من حكاية عداء الاجهزة، ومروراً بتأكيد ان «ابنه فقط من ذهب الى لبنان» وبمشاعر الأقلية التي ذهب ابناؤها الى هناك، وخصوصاً موقفها، هذه النقطة المركزية، التي يبدو ان الخطاب يتكتّل حولها منذ البداية، وحتى النهاية: «الشخص الوحيد الذي لا ينبغي ان يكون هناك من البداية، هو ابني».

ان هذا الخطاب قطعة أدبية متكاملة فنياً، لا تهتم الّا بشيء واحد: ايصال عاطفة أب تجاه ابنه وتجاه ما يحدث في لبنان. الّا ان هذه العاطفة لا تصل الينا بلغة سجالية، أو جدل سياسي، أو منطقي، بل عبر تجسيد شخصية الابن وعاطفة الأب بهذه الصورة. «وظل ابني فقط، وحليب امه لم يكد يجفّ على شفتيه في حذائيه العسكريين غير الملائمين، ظلّ المقاتل الوحيد في الحي، وهو موجود الآن في مكان ما من لبنان». وعبر تجسيد شخصية الأب في هذه الصورة: «وتحاول ان تتعرّف على الجنود في التلفاز ربما ترى احداً من وحدة ابنك. وتريد ان تراه أيضاً، لكنك تصلّي لكي لا تراه بجاكيتته المضادة للرصاص وحزام الذخيرة والبندقية في ذلك المشهد السيريالي، حيث يخفي مظهر الحياة العادية جهاز تفجير مؤقت»(٤٠).

لعلّ التحدّث بصيغة الآخر الغائب هو احدى وسائل التأثير التي يريد الخطاب، من خلالها، ان يقول ان هذا الموقف، وهذا الانفعال، وهذه العواطف، صفة غير ذاتية، بل صفة موضوعية، في الاشياء، في الطبيعة: طبيعة الحياة نفسها. أَلَم يبدأ حديثه بـ «الاضطراب الذي وقع في حياتنا»؟

ان هذا الاسلوب الماهر في الخطاب يرفع القضية الشخصية من كونها قضية خاصّة بفرد الى قضية خاصة بك، وبالآخر، وبالجميع.

بمثل هذه التقنية يتوصّل الخطاب الصهيوني الى تحويل مواقفه وأفكاره الى مواقف وأفكار من صميم الحياة نفسها، ومن صميم الوجود. فهو لا يهبط من فكرة ليستجلي عبرها صور الوجود وتجاربه، بل يفعل العكس. ففي الفن تستخدم الصور والتجارب لاستجلاء القضايا الفكرية.

اذن، مثل هذا الخطاب الفني لا يستهدف اثارة جدل سياسي، ليس لأنه يخشى الجدل، أو لأن حججه ضعيفة، بل لأن تأدية وظيفته ذاتها تقتضي مثل هذا النحو من التقنية، ولأن هذه التقنية ذاتها من صميم العمل الفني.

ما الذي فعلناه في المقابل؟ سواء مقابل هذا الخطاب أو مقابل هذه الوظيفة الفنية؟

من الملفت للنظر ان الأعمال العربية التي حظيت بتقدير في العالم الخارجي هي الأعمال التي تخلّصت من نمط الجدل العربي ومن أساليب الصياغة الشائعة عربياً. أي انها بالضبط الأعمال التي قدّمت المضمون الانساني والاجتماعي للتجربة العربية، وطرحت الانشاء اللفظي لتأخذ بالانشاء الاجتماعي، وانصرفت الى تأكيد حضورها المميّز في سياق التجربة الانسانية بعامة. من هذه الأعمال، على سبيل المثال، «المحرومون» لفواز تركي، و«الخبز الحافي» لمحمد شكري. وهما عملان ميزتهما العامة انهما أضاءا، لأول مرة، شخصية الانسان العربي، ذلك الذي غطّته مئات الخطب والمحاججات وأساليب الدعاية، وحوّلته الى مجرّد لفظة ترد بين ألفاظ.

ان خصوصية التجربة وحدها لا يمكن نقلها الّا من طريق الفن، وذلك لأن الفن وحده هو الذي يصل ما بين التجربة وأعماق قضايا الوجود الانساني. وبهذه الصلة يستطيع الانسان مخاطبة الانسان. ويظهر كل منهما ان ما يعني احدهما يعني الآخر.